المصدر: القدس العربى
التاريخ : ١١ ابريل ٢٠٠٣

سقوط بغداد: رب ضارة نافعة!

■ الآن وقد اوشكت الحرب التي تشنها الولايات المتحدة وبريطانيا على الانتهاء من الناحية العسكرية بسقوط بغداد ونظام حكم الرئيس العراقي صدام حسين وتشكيل ادارة امريكية قد تكون مدعومة بشكل ما من الامم المتحدة، سقوط بغداد والنظام البعثي فيها لا يعتبر نهاية للحملة الامريكية التي لا يخفى على احد ان اهدافها هي اكبر بكثير من تغيير النظام في العراق او تجريد الأخير من اسلحة الدمار الشامل كما قيل قبل الحملة. سقوط بغداد يمثل محطة هامة في التاريخ العربي لا تقل اهمية عن هزيمة الجيوش العربية امام اسرائيل عام سبعة وستين وسقوط الايديولوجية الناصرية التي انتهت تماما بوفاة عبد الناصر. سقوط بغداد يمثل سقوطا للنظام الرسمي العربي ليس فقط في العراق بل في كل اقطار العالم العربي. هذا النظام عجز على مدى الخمسين عاما الماضية اي منذ ما يسمى بالاستقلال في بناء دول قابلة للاستمرار ونجح فقط في بناء انظمة عسكرية استخباراتية سخرت موارد هذه الاقطار لحماية هذه الانظمة اساسا من الشعوب التي تحكمها قبل ان تكون لحمايتها من الاخطار الخارجية ولعل التجربة في العراق تثبت ذلك. فقد اعتمد النظام العراقي على الاجهزة الأمنية المتعددة لاحكام سيطرته على البلد وجاء ذلك على حساب الجيش بالمعنى الكلاسيكي وهذا يفسر السهولة النسبية التي مكنت قوات التحالف من الوصول الى بغداد. النظام العراقي كان يراهن على حرب العصابات التي اوكلت مهماتها للميليشيات المختلفة التي اوجدها النظام اصلا لحمايته من الداخل وبالتالي فهي ليست مؤهلة لمواجهة قوات عسكرية نظامية مدربة جيدا ومسلحة بأحدث الاسلحة الفتاكة. هذه الميليشيات المسلحة والتي هي عبارة عن مزيج غريب من البعثيين المستفيدين من النظام وعناصر اخرى لم تكن ندا للقوات المتحالفة التي استوعبت مخطط النظام وتفادت دخول المدن الرئيسية في الايام الاولى للحرب وركزت على التقدم بسرعة باتجاه بغداد لضرب قلب النظام بدلا من الانشغال بمعارك الشوارع والسيطرة على الاحياء الشعبية. المحللون العسكريون في واشنطن ولندن ادركوا جيدا خطة النظام التي قامت على فكرة جر التحالف الى حرب شوارع لوضع ضحايا كبيرة بين المدنيين املا بان تؤدي صور القتلى من النساء والاطفال الى خروج مظاهرات شعبية في اوروبا والولايات المتحدة تشكل ضغطا على السياسيين لوقف الحرب وهو ما كان لينقذ النظام العراقي من هزيمة حاسمة تقضي عليه نهائيا.

اذن الحرب التي تكاد ان تكون قد حسمت لصالح التحالف الامريكي - البريطاني قد حققت احد اهدافها وهو اسقاط نظام صدام حسين لكنها لن تنتهي عند هذا الحد لأن الاهداف غير المعلنة للحرب لم تتحقق بعد واهمها تغيير الخارطة السياسية للمنطقة العربية وتشكيلها على الصورة الامريكية. فقد بدأت هذه الخطة تتضح عندما حذر وزير الدفاع الامريكي دونالد رامسفيلد كلا من سورية وايران وجدد تهديده لسورية امس بعد دقائق من بث الصور الحية من بغداد التي اظهرت العراقيين يحطمون تمثالا كبيرا لصدام في وسط بغداد. ولا بد هنا من الاشارة الى التوقيت الذي اختاره رامسفيلد لتوجيه تحذيره هذا الى القيادة السورية التي تفهم جيدا معنى هذه الاشارة.

اذن من الواضح ان الحرب على العراق واسقاط صدام ليس سوى البداية لما يعرف بالعصر الامريكي الذي يقوم على الهيمنة وفرض الرؤية الامريكية على العالم بعد تحييد الامم المتحدة وابعادها عن واجهة القرار لان واشنطن تعتقد ان الامم المتحدة قد استهلكت دورها. الصقور في الادارة يطالبون بان تتبنى واشنطن سياسة تقوم على مبدأ الضربات الوقائية في اي مكان في العالم تعتقد واشنطن انه يشكل خطرا على مصالحها. هذا المبدأ ليس حديثا اذ تبنته مجموعة بيرل في السبعينات والثمانينات عندما كانت تعرف باسم (الفريق ب) ولم يكن لها حظوة كبيرة في الاوساط السياسية في واشنطن لكن احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) غيرت المعادلة ودفعت هذه المجموعة الى قلب مركز صناعة القرار في واشنطن.

السؤال هنا ماذا يعني ذلك للعالم العربي وكيف يتعامل مع الواقع الجديد؟

الصورة الاولية تؤكد ان الانظمة العربية فهمت الدرس جيدا وهي تعلم انها في مرحلة الانتظار وهذا يفسر الصمت الرسمي قبل الهجوم الامريكي على العراق. دول عربية عديدة وجدت نفسها في مأزق بين تأييد امريكا علنا في حربها وبين دفع الضريبة الكلامية المعروفة حول التضامن العربي والحفاظ على سيادة العراق من خلال عقد مؤتمرات القمة التي لم تكن سوى نوع من تمارين العلاقات العامة لاسكات الشعوب المتعاطفة مع الشعب العراقي في محنته. العديد من الدول العربية منحت واشنطن تسهيلات عسكرية من خلال فتح مجالها الجوي او منح الامريكيين قواعد عسكرية او فتح القواعد القائمة دون الاعلان عن ذلك خشية الاحراج. النظام الرسمي العربي في حالة قلق وترقب لما ستسفر عنه تداعيات سقوط بغداد والكل يأمل بان لا تطاله موجة التغييرات التي تخططها واشنطن للمنطقة لكنه في الوقت نفسه عاجز عن فعل اي شيء لدرء الخطر.

الادارة الحالية في واشنطن وهي ادارة يرأسها رجل يعتقد جديا انه مسير من قبل الله على محاربة الشر في اي مكان في العالم ويلقى تأييدا لا يقل عن ثمانين مليونا من الامريكيين المسيحيين المتشددين وادارته المشكلة من اشخاص وصلوا الى مراكزهم بفضل روابطهم بصناعة النفط او جماعات الضغط المؤثرة كاللوبي الاسرائيلي. هذا التيار يعتبر ايضا من اشد المؤيدين لاسرائيل وقد بدأ منذ الان في حشد التأييد لمنع اي محاولة من الرئيس بوش لفرض خريطة الطريق على تل ابيب التي يعتقد هذا التيار ان بوش قد ينجر اليها تحت ضغط والحاح صديقه

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

عصام عكرماوي *

الطيب توني بلير رئيس الوزراء البريطاني، التيار المتنفذ في امريكا وضع نصب عينيه تغيير خريطة الشرق الاوسط عن طريق ادخال الديمقراطية اليها واستبدال الانظمة القائمة بعض الدول يقينا منه ان هذا التغيير هو الوسيلة الافضل لمحاربة الارهاب الذي تمثله الجماعات الاسلامية المتشددة مثل القاعدة والتي نجحت في تجنيد عناصر داخل دول كانت واشنطن تعتقد انها حليفة وصديقة مثل المملكة السعودية، واشنطن غاضبة جدا على السعودية وترى انها المسؤولة عن تنامي ظاهرة الاصولية الوهابية في العالم الاسلامي وهي لن تغفر لها ذلك ابدا، تيار بيرل يعتقد انه يجب استبدال النظام السعودي بالتحديد بنظام ديمقراطي مؤيد لامريكا مستعد لمحاربة الاصولية الارهابية بكل ما اوتي من قوة وهو يقول ان النظام السعودي الحالي غير قادر على لعب هذه الدور بسبب الموازين التي تحكم هذا النظام المشكل من تحالف العائلة المالكة السعودية مع احفاد محمد عبد الوهاب المعروفين بآل الشيخ في السعودية والذين يمثلون التيار الوهابي الذي تستغله العائلة المالكة للحصول على الشرعية في الداخل.

اذن التغيير على الطريقة الامريكية آت لا محالة والمسألة فقط في التوقيت، السؤال هنا هو هل يستطيع العرب التصدي للعملاق الامريكي الذي يسير مختالا كالطاووس بعد (تحرير بغداد)؟

الجواب هو يمكن ذلك في حالة واحدة وهي ان تبادر الانظمة للعربية في توجيه ضربة وقائية للمشروع الامريكي والمعني هنا ليس ضربة وقائية عسكرية بالطبع، فالدول العربية لا تستطيع مواجهة امريكا عسكريا وهي ليست بحاجة الى ذلك اصلا وليس مطلوبا منها ان تفعل ذلك، فامريكا هي الدولة العظمى الوحيدة في العالم لما تملكه من قدرات اقتصادية وعسكرية وسياسية كبيرة شاء العالم ام أبى، الضربة الوقائية المقصودة هنا هي من نوع اخر تماما، فالمطلوب هنا ان تتحول الانظمة العربية الى انظمة ديمقراطية حقيقية تعمل على خدمة شعوبها وتكريس كل طاقاتها للبناء والتعمير واقامة المؤسسات الفاعلة بدلا من اقامة الاجهزة الامنية المتعددة وبناء المعتقلات والسجون، بالطبع لا يتوقع احد من الانظمة الحالية التي تمتعت بالانفراد بالسلطة على مدار السنوات الخمسين الاخيرة ان تغير جلدها وتصبح ديمقراطية بين ليلة وضحاها.

فاستراتيجية هذه الانظمة هي قصيرة النظر تسعى دائما الى الحفاظ على الوضع القائم وهي تحرص على ذلك حرصا شديدا، فقد تحولت الجمهوريات الثورية الى اقطاعيات خاصة يورثها الاباء للابناء كما حصل في سورية وما كان سيحصل في العراق لو بقي صدام وابناؤه او كما سيحصل في مصر واليمن وليبيا في حالة بقاء الانظمة الحالية، اذن الوسيلة الافضل للتصدي للمشروع الامريكي هي ان يستبق العرب التغيير المفروض عليهم من الاعلى وان يبادروا هم بالتغير لعله يكون اقل الما من التغيير بالمواصفات الامريكية، قد يفهم البعض ان المطالبة بهذا التغيير في هذا الوقت بالذات يصب في مصلحة امريكا ويعني الاستسلام للمشروع الامريكي، لكن الجواب هو اليس من مصلحة العرب ان تكون لديهم انظمة ديمقراطية يكون همها الاساسي صالح شعوبها وتنمية مجتمعاتها التي تضم اعلى نسب الشبان في العالم؟ اليس الاستقرار السياسي والتعددية مطلبا شعبيا حقيقيا طالما نادى به السياسيون والمثقفون العرب ولقي المئات منهم حتفه بسبب مناداته بالتغيير؟ هل يهم حقا اذا كان هذا التغيير وادخال الديمقراطية الى العالم العربي سيجد مباركة امريكية؟

هناك مثل قديم يقول رب ضارة نافعة ولعل سقوط بغداد ونظام حسين يكون هو نقطة الاشتعال لتغيير الوضع القائم في العالم العربي.

الفراغ السياسي في العالم العربي اصبح عميق الجذور والدليل على ذلك الغياب شبه الكامل للاحزاب السياسية الحقيقية والنقابات والمنظمات النسائية والشبابية والمفكرين والادباء والمثقفين، فالمعارضة الموجودة الان هي في الغالب معارضة دينية تعبر اصلا عن الغضب والاحباط بسبب الفشل المتراكم اكثر من كونها معارضة تطرح بديلا واقعيا، كما انها تفتقد الى المشروع الحضاري الذي يقدم رؤية شاملة لحل المشاكل المستفحلة في هذه المجتمعات التي تواجه احتقانا كبيرا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، اذن يمكن القول ان المعارضة الدينية هي ليست الا ردة فعل غاضبة على ما يحدث لكنها هي الاخرى تطمح في السلطة لتفرض ايديولوجيتها القائمة على نظرية الفكر الواحد الذي لا يتسامح مع المعارضة او الاختلاف في الرأي كما ان قراءتها للخارطة السياسية العالمية متاثرة بنظرية تقوم على المواجهة والعداء دون ان يكون لها بالضرورة القدرة على التعامل مع هذه المواجهة او الاساليب التي تمكنها من خوض المواجهة مع اعدائها.

فالعالم العربي ليس بحاجة الى مواجهة الولايات المتحدة او الدخول في صراع معها بل المطلوب ان ينمي قدراته السياسية والاقتصادية التي توفر له الشروط الافضل للتعامل مع واشنطن بحيث يضمن مصالحه الاستراتيجية ويحقق الرخاء والتقدم المطلوب لشعوب المنطقة، لقد انتهى عصر المواجهة والغزو والفتح ونحن الان في عصر التعايش والتعاون والفهم المتبادل لمجتمعات الاخرى التي بفضل العولمة المتمثلة في التقدم التكنولوجي ووسائل الاتصال التي قربت شعوب العالم من بعضها البعض، العولمة هنا لا تعني بالطبع الاستسلام للمفهوم الامريكي لها ولكنها تعني القبول بها كأمر واقع ومن ثم التعامل معها بشكل يحفظ المصالح الوطنية فوق مبدأ المنفعة المتبادلة وليس الهيمنة الاقتصادية والسياسية.

---

* كاتب فلسطيني يقيم في لندن

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية